داود عليه السلام

فتنة داود

نشأ داود عليه السلام فارساً شجاعاً، وباسلاً[1] يقوم على أخطر الأمور، ويحل المعضلات، فهو فتى هيأته ظروفه لمبارزة أقوى العتاة، وهو ـ بعون ربه ـ قد انتصر عليه، فأصاب من البطولة ما خلدته صفحات تاريخه الناصع النقي.

ثم هو في طيات عمره كان صانعاً من أمهر الصناع، يصنع من الحديد لباساً للحرب ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾[2].

ألاَن الله له الحديد، وهيَّأ له القوةَ القادرةَ، لكي يُذيب الحديد ويعمل منه دروعاً من حلقاته لا تنال منها شفرات السيوف، لا طعنات الرماح.

وقد كان نبي الله داود فوق فروسيته، وقوته، وبراعته ـ عابداً كثير التسبيح، يردّد تسبيحه، فيُهرَع الناس إلى سماعه ينعمون بأشجى صوت، وأجمل ترتيل.

وهو من بعد قد سار على منواله، فكان يتبع نظامه الذي شَرعه لنفسه منذ حين من الدهر؛ قد قسم الدهرَ أرباعاً: واحداً لنفسه، وآخر لعبادة ربه، وثالثاً للفصل والقضاء بين الناس، والرابع لبني قومه يعظهم ويرشدهم إلى سواء السبيل.

وداود كذلك ملك ونَبيّ، أقام على منازله الحرّاس والجند، وهو لا يغيّر أنظمته تلك ولا يحيد عنها ما تتابع المَلَوان، وأشرق النيِّران؛ بل هو يسلك الطريق الذي يسوّي بين تلك القسمة العادلة، وهذا الحساب الحكيم.

* * *

---

(١) الباسل: الأسد.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٠.

رجلان لهما كل ما للرجال من خِلْقَةٍ وصفات، وإلا أنهما يختلفان عن رجال بني إسرائيل قوم داود: فأولئك تعوّدوا أنظمة مَلِكهم فأطاعوها راضين مختارين، وذانِ خَرَقا سياج العُرْف، وخرجا على المتَّبع المألوف؛ فتقدما إلى الجند طالبين أن يَدْخلا على داود، وذلك في غير وقت القضاء ومقابلة الناس، فليس للحراس إلا أن يذودوهما، وأن يمنعوهما عن ذلك الحمَى المنيع، حتى يحين الوقت الذي يباح فيه لأمثالهما أن يتقدّما بين يدي نبي الله الكريم.

وما كان للحراس أن يدركوا هذه القدرة الخارقة المعجزة؛ فليس هذان إلا مَلَكين في صورة الناس، وهما سيَصِلان حتماً إلى داود، وسيكون لهما شأن لديه مشهود، وسَيَنْفُذَانِ إليه بتلك الحكمة الصادقة، والحجة القاطعة، وسيكون من أمرهما عبرة ناجعة لنبي الله داود.

تسور الملكان المحراب، ودخلا على داود: ففزع منهما، وقد رآهما بين يديه جالسين بغير إذن ولا شفيع، فقالا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ[1] وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾[2].

وجد داود نفسه أمام أمر واقع، فتهيَّأ لهما، واستعدّ للحكم بينهما، واستمع لجدالهما، فإذا أحدهما يقول: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجةً، ولِيَ نعجةٌ واحدةٌ، ولكن أخي امتدَّت به أطماعه، فلم يقهر نفسه، ولم يُغالب هواه؛ بل قال: أعطنيها. فلما ناقشتُه غلبني نقاشُه، وأفحمني حجاجه وجداله، لأنه أفصحُ مني لساناً، وأقوى حجةً وبياناً. تلفَّت داود إلى الرجل الآخر، فاستوضحه الأمر، وسأله رأيه فيما يقول خصمه. فقال: إن لي تسعاً وتسعين نعجة، وله نعجةٌ واحدة، فأردت أن آخذها منه حتى تكمل نعاجي مائة. فقال داود: أوَ أخُوكَ يكره ذلك؟! قال: نعم!

فاستشاط داود غيظاً، ورماه شذراً وقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾[3].

---

(١) لا تشطط: لا تجُر.

(٢) سورة: ص، الآية: ٢٢.

(٣) سورة: ص، الآية: ٢٤.

انصرف المَلكان، ثم أخذ داود بعد ذلك يفكر في هذا الحدث العظيم الذي تمثل أمامه، أخذ يفكر في هذا التسَوُّرِ المفاجيء، والمباغته التي لم يكن يفكر فيها فأدرك بفطرته السليمة الحكيمة أن ذلك دَرس من الله، وعِبْرة له، ليراجع نفسه، ويغير موقفه من تأجيل قضايا الناس، فلا يتركهم على ضجر وانتظار، وألاّ ينصرف إلى العزلة عَنهُم، إذ أنّ العدل بينهم، والفصل في قضائهم أوْلى وأحَقّ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾[١] يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٢].

وما كان يدورُ يخلد نبي الله داود، أنه بعمله مقدمٌ على ما يستوجب اللوم والعتاب، ولكن الله حاسبه فألزمه الحجة على علُوّ كعبه، وعظم منزلته، حتى يوقن الناس أن الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأنه يؤاخذ الناس جميعاً بأعمالهم، سواء في ذلك عامتهم وأنبياؤهم، فلا يدع مؤاخذة نبي لنبوته، ولا يَغْفَل عن حقّ مظلوم أقعده ضَعفه، عن بسط ظلامته.

* * *

أصحاب السبت

كان من تعاليم نبيّ الله الكريم موسى أن ينقطع قومُه بنو إسرائيل عن أعمالهم يوماً في كل أسبوع، فلا يرْكنُون إلى مزاولة عمل مّا تشغلهم به دنياهم، بل يفزعون فيه إلى عبادة ربهم، ويَعْكِفون على حمده، وتعدادِ نعمه وآلائه، حتى تطهر قلوبهم بذكر الله؛ والذكرى تنفع المؤمنين.

كان يومُ الجمعة هو اليومَ الذي أُمِروا أن يعبدوا الله فيه، ولكنهم رغبوا أن يكون يومُ عبادتِهم يومَ السبت الذي انتهى فيه خلقُ السموات والأرض، ولما اختاروه قبِلَ الله اختيارهم؛ فكان موسى عليه السلام يَزَعُهم ويعظهم، وَيُقْبل إليهم فيه مذكراً مرشداً.

مرّت الأيام وبنو إسرائيل على عادتهم يقدّسون يوم السبت، ويُفْرِدونه لطاعةِ

(١) سورة: ص، الآية: ٢٤.

(٢) سورة: ص، الآية: ٢٦.

يتقرّبون بها، أو لعبادةٍ يسبحون الله فيها، وتكاثرت أعقابهم، وتوالت أيامُهم، وهم على هذا مقيمون، وعلى تلك السُّنة دائبون.

وفي قرية من قراهم على شاطىء البحر الأحمر، يُـقَالُ لها (أيلَـة)[1] كان يسكن قوم من سلالة بني إسرائيل في زمن داود عليه السلام، وكان عليهم أن يلتزموا سُنة آبائهم وأجدادهم، فيسيروا على عبادة الله في يوم السبت، فكانوا لا يزاولون فيه عملاً من أعمالِ دنياهم؛ من صيدٍ أو متاجرة أو صناعة.

وكان على ساحل البحر بجانب (أيلة) حجَران أبيضان، تخرج الحِيتان إليهما ليلة السبت ويومه؛ إذ قَد أمنت أن تُصَاد، فهي تأنس في هذا الزمن وتأمن، فتتكاثر وتتزاحم، والقومُ حينئذٍ لا تمتدّ أيديهم إلى ترويع هذه الحيتان بصيد؛ لأنهم مشغولون بتسبيح خالقهم، محرَّمٌ عليهم أن يفزّعوا صيداً، أو يمارسوا في الدنيا عملاً وإذا جاءت ليلة الأحد تسرّبت الحيتان إلى البحر، فانبعثت إلى باطنه؛ فتعذَّر على القوم أن يصطادوها في أيام هي حِلّ لهم.

تحرّكت دواعي الطمع، وثارت عوامل الجشع في نفوس الفسَّاق من أهل هذه القرية، فغفلوا عن تعاليم أنبيائهم، ونَسُوا حظاً مما ذُكروا به؛ فتشاوروا فيما بينهم وتبادلُوا زمام الرأي، وقالوا: ما بالنا نترك هذه الحيتان في يوم تكثر فيه وتزيد، وتتزاحم متسابقة إلينا؛ ونأتي إلى صيدها في أيام تُحجم عنا وتُدْبِر، فلا سبيل إليها إلا بمشقة وجهاد؟ إننا بذلك لحائدون عن طريق الصواب!!

لا رأي إلا أن نُقْبِل على هذا الصيد في يوم السبت، فنأخذ منه ما نشاء، ونصل فيه إلى ما نبغي ونريد.

أقبلوا على الصيد، فاصطادوا كثيراً بلا تعب ولا عناء، ثم صنعوا به ما شاءُوا وما اشتهوا من مطبوخ ومشويّ، وأقبلوا يُشبعون نَهَمَهَم ويملئُون بطونهم.

علم المتَّقون منهم بما فعل هؤلاء الفساق المستهترون؛ فخرجوا إليهم ووعظوهم وحَذّروهم؛ فما زادهم ذلك إلا استهتاراً وإمعاناً في غَيِّهم، وانسياقاً في ضلالهم، فثارت

(١) أيلة: مدينة على بحر القلزم مما يلي الشام، وقيل آخر الحجاز وأول الشام.

ثائرة المؤمنين، وحاصروا القرية بسلاحِهم يمنعون هؤلاء المارِقين من دخولها، لأنهم خارجون عن طاعة الله آثمون فاسقون.

اشتدّ ذلك على الفساق، وشق عليهم أن يمتنعوا عن الصيد في يوم السبت، مع كثرة الحيتان فيه، دون غيره من الأيام، فقالوا للمؤمنين منهم: إن القرية لنا ولكم، ولا حق لكم في دفعنا عنها، والانفراد بها دوننا، ولا أحد يلزمنا بتركها لكم، إنها مَوْطِنُنا وموئلنا ومحط رزقنا، ولا سبيل إلى تركها، ولا مفر لنا إلى غيرها، فإن صممتم على رأيكم، ولم تحيدوا عن عزمكم فلتقاسمونا القرية، ولنبْنِ حيطاناً بيننا وبينكم، حتى يعيش كل منا على ما يشتهي وكما يريد.

ارتضى المؤمنون أن يُقاسموهم القرية، وأن يُقيموا سَدًّا يحجب عنهم هؤلاء المارقين.

انفردت كل طائفة، وشُغل الفُسَّاقُ بلهوهم وصيدهم، وحفروا نهيراتٍ تصل البحر بقريتهم، فإذا كانت ليلةُ السبت سارت الحيتان فيها إلى أبواب دورهم، فإذا غربت شَمْسُ السبت وهمَّت الحيتان بالرجوع حجزوها بسدود أقاموها تعترض مجرى النهيرات، فلا تملك الحيتان أن تتسرب إلى البحر.

ولكن المؤمنين لم يغفلوا عن زجرهم وتخويفهم عذاب الله، فلما طال النصح، لم يزدهم إلا تمادياً وعتواً ﴿قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[1].

فتركوهم في غيِّهم يَعْمَهونَ، وانصرفوا عن وعظهم لأنهم لا يتعظون.

استمر الفساق في لهوهم، وسدروا في غُلَوائهم، وكثرت أموالهم، وتغالوا في فسوقهم وعصيانهم، حتى ضاق بهم نبي الله داود، فاتجه إلى ربه يستنصر به، ويطلب اللعنة لهم، فأجاب الله سؤله، وحقق أمله، فَزُلْزِلت قريتهم زلزالاً عظيماً، ففزع المؤمنون من ذلك وخرجوا من بيوتهم. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ[2] بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٤.

(٢) بئيس: شديد.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٦٥.